الكهل المبتسم

أسماء عبدالخالق

بينما كنت فى المطبخ أعد فنجان القهوة خاصتي، قليلة السكر عالية الجودة كما تقول لي أمي، رن هاتفي على نغمة سامسونج التقليدية فأخذت فنجاني القهوة في صينية دائرية وهاتفي المحمول في يدي اليسرى، وبمجرد أن رفعت يدي للرد لمحت المرآة الموجودة أمام الحمام فقط لمحتها، كأني وجدت عفريتًا أو ربما شبحًا؛ فعدت خطوة للوراء كي أتأكد مما خُيِّل إليَّ؛ فلامست قنينة زجاجية كانت على حافة المنضدة الموضوعة بمنتصف المطبخ، وفور اتجاهي للمرآة مرة أخرى؛ فإذا بوجهٍ عابسٍ مخيفٍ ينظر إليَّ بِنَهم وفي تلك اللحظة سمعت صوت ارتطام قوي بالأرض؛ فتفتت روحي على أثرها وتناثرت بقاياي في محيط المطبخ، والطريق المؤدي للصالة؛ فانسحبت مسرعة وأغلقت الهاتف في صمتٍ متجهة إلى غرفة نومي، وضعت القهوة على الطاولة المجاورة لسريري وقمت توضأت وصليت الفجر؛ فإنها الساعة الخامسة والنصف فجرًا وربما كانت تلك هلاوس أو تهيؤات!

انتهيت من الصلاة وشربت قهوتي ثم جلست على سريري متكأة على وسادتي أقرأ أذكار الصباح، فإذا بكائن غريب يظهر أمامي يبلغ طوله متران تقريبًا ، إلا أن أطرافه قصيرة نسبيًا ومن الواضح متانة بنيته الأمامية؛ فكانت رقبته مرتفعة عن المألوف وضخمة بشكلٍ مخيف ومما زاد الوضع سوءًا أن وجهه يحمل ملامح إنسان، عينان لامعتان كالحمم البركانية وأنف ملتو، والأسنان مخروطية الشكل

فتنفرج سرائره لا أعلم لما؟! لكن يصيبنى الرعب والقشعريرة؛ ربما من هول الصدمة!

دفنت وجهي في وسادتي، وأغمضت جفني وشددتهما عن آخرهما، فإذا بطرقٍ على كتفي مصحوبٍ بعدة طرقات على باب الغرفة، بدأت رقيقة هامسة إلى أن ارتفع صوتها وضجيجها في أذني- لن أبرح مكاني- سحبت الغطاء على مهل حتى أخفيت معالم وجهي، وأخفيت جسدي كله كأني داخل مقبرة غطائي، ظلام دامس، أصوات خفية لا أعلم مصدرها!

طرقات متتالية وسريعة، صوت هواء، أو ربما رياح عابسة ضلت طريقها وأتت إلي لتقتلني ببطء جراء نواحها و تصرفاتها الهوجاء!

أقنعت نفسي أنه مجرد وهم في مخيلتي سببها قصة الرعب التي كنت أقرأها قبل نومي في الليلة الماضية، ما الذي أفعله بنفسي الآن؟! هل أدور في مدارات ومتاهات لا أحفزها رغبة مني أم رُغمًا عني؟!

أشحت بنظري عن تلك الجهة فإذا به يلاحقني في الجهة الأخرى، ليس هو فقط بل معه مجموعة من الصغار على نفس الشاكلة، وعندما تداركت الأمر قليلًا ؛ خرجت منتفضة مهرولة إلى أمي بالصالة وهي على سجادتها تختم صلاتها والأغرب أنها لم تنتبه لمعاناتي، صمت وحاولت أن أطمئن نفسي كيف أن يحدث هذا بشقتنا؟ كيف يدخل هذا الكائن من الأساس ويلاحقني، ولما أنا بالذات؟

يا ربي هذا الكائن يحاول إخافة أمي لكنها لم تتأثر! كيف لم تنظر إليه حتى؟ كيف لم تصرخ أو تنتحب أو حتى تبكي؟ أو حتى تصاب بالإغماء؟ كيف لي أن أقرر حالها أو أحكم علي مشاعرها و ردَّة فعلها؟! ربما أنا وحدي من أراه! أنا وحدي من

أشعر بأنفاسه تلاحقني لاهثة خلفي، تراجعت عدة خطوات للوراء كأني كالمخمور؛ أترنح لا أصدق ما أرى، اتجهت مسرعة لغرفة أبي كان جالسًا على الكرسي الكائن بجوار السرير يصلي هو الأخر في تأنٍ وخشوعٍ، ولم يستجب لندائاتي أو حتى يلحظها!

ياربي لما يحدث كل هذا لي؟ حتى هو الأخر لم يره؟ فأعدت النداء مرات ومرات أبي.. أبي.. إلتفت إليّ بنظرة حزمٍ قائلًا :

-ما كل هذه الضجة، تُرى أمرضٌ أصابك؟!

فأجبته والخوف يسري في عروقي:

- لا لا ، بل أسوأ من هذا بكثير، انظر هناك! تساءل أبي ثانية:

-ما بكِ؟! هل جننتِ؟! ماذا ترين فأنا لا أرى شيئًا!

فخرجت مرتعدة أطرافي إذا بي أسمع صوت ساعة الحائط المعلقة على حائط صغير بالقرب من باب غرفة نوم أبي وأمى التفت في خوفٍ منقطع النظير، فإذا ببندولها يتراقص ذهابًا وإيابًا ساخطًا علي هو الأخر، وكأنه سيخرج من صومعته كي يدق أجراسه على رأسي!

خطوات ثملة وبقايا دماء في أوردتي وشراييني تساعدني على البقاء على قيد الحياة ولو قليلًا لكن، حدث ما لم يخطر لي على بال بشر، خطوة واحدة نحو غرفتي المجاورة لباب الشقة فإذا بي مُعلقة ومرتفعة في الهواء رأسي لأسفل وقدماي لأعلى بالركن الخاص بباب الشقة، وبقيت على تلك الحال ثلاث دقائق وكأنني أصعد وأهبط مع شهيق وزفير متطاير، وأنات مكتومة ومازال هذا الوحش مبتسمًا، ضحكته الساخرة تلك بلمعان عينيه التي تملؤها النيران، يا الله علي أن أقاوم هشاشة روحي تلك وأفيق من سباتي؛ فهكذا موقف لن يجبرني على الخضوع

والانحناء ربما أحتاج فقط ما يحفز جسدي وروحى للعودة إلي والتغلب على هذا الكائن!

استعذت بالله مرارًا، وقرأت آية الكرسي ألملم نفسي، وأجمع شتاتها للنهوض مجددًا وإذا بي أنهض من على سريري، يبدو أنها كانت غفوة كابوسية مرعبة، قمت على أثرها أحاول أن أجمع بعضٌ من الهواء المتطاير بالغرفة أملأ به خزائن رئتي الفارغة، يا الله أراني في تلك الحالة بعدما نمت ملامح الشحوب على وجهى كالكهل الفاقد للحواس في كومة من المصائب مبتسمًا، لكن لا تزال طلقات الرصاص التي تعود لذاك الكائن تخدش جدران فؤادي، والكل يدور من حولي في فلكه الخاص غير مبالين بما أمر به، حمدًا لله على سلامتي!

openkandl.com